السبيل لاسترداد فاعلية الأمة

الدكتور عبد اللطيف محمود آل محمود

نشر في كتاب

البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي

"بلاد الجزيرة العربية"

(سلسلة مشروعات ثقافية)

إعداد إدارة البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، 2002م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان
1439 / مايو 2018

السبيل لاسترداد فاعلية الأمة

الدكتور عبد اللطيف محمود آل محمود[*]

أما وقد ثبت في الواقع، أن بلاد الجزيرة العربية والأمة المسلمة بشكل عام قد تخلَّفت عن القيام بدورها الحضاري في الوقت الراهن، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب، ومواطن الخلل التي عطلتها، ولا يجوز لنا الاكتفاء بالقول: بأن ذلك من فعل الأعداء!

إنه لمن المسلمات في الحياة الإنسانية أن الأحكام والمبادئ والخصائص والمقومات لأي رأي أو فكر أو دين أو قانون، لا تؤتى ثماره ولا يجنى جناه إلا إذا وجد من يؤمن به ويعمل على تحقيقه، وتوجد البيئة الملائمة والظروف المواتية لتطبيقه.

والأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم، ولا استثناءً من قواعد الحياة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (الزخرف: 33-35)،

قال الله تعالى :

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (فصلت:9-10).

---

[*] باحث.. أكاديمي (مملكة البحرين).

ولا يصلح القول: بأن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تقوم بدور حضاري أو ليس لها مقوماته، لأنه قد كان لها دور حضاري على أرض الواقع، بدأ في مهبط الوحي في الجزيرة العربية، ونطقت به المعالم الأثرية الحضارية في جميع البلاد التي استقر بها المسلمون، وتزخر بها المكتبات، ونتج عنها العلوم النظرية والتطبيقية التي عرفها المسلمون.

ولا يجوز لنا الاتكاء على أن الأعداء قد عملوا لإخراج الأمة الإسلامية عن دورها الحضاري باستعمارها والسيطرة عليها والتصرف في مقدراتها وقوانينها بالقوة والهيمنة، فذلك شأن الصراع بين القوى، والغالب يفرض سلطانه ورأيه على المغلوب، طبقاً لأحكامه وقواعده وأخلاقه وسياسته ونظرته إلى الآخرين.

أما وقد ثبت في الواقع أن الأمة الإسلامية قد تخلفت في وقتها الراهن عن القيام بدورها الحضاري أمام الحضارات الأخرى، والغربية على وجه الخصوص، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب التي عطلتها عن ذلك.

ويمكن التأكيد على ما سبق قوله من أن الأفكار والآراء والأديان لا تؤتي ثمارها إلا إذا وجدت ثلاثة أمور: أولها الإيمان .. وثانيها العمل على تحقيقها.. وثالثها: البيئة الملائمة للتطبيق.

أما **الإيمان بالإسلام**، فإنه لابد أن نفرق بين الإيمان به كمعتقد شخصي، وبين الإيمان به كدين حضاري جاء من الله تعالى لتحقيق الحياة الطيبة للناس أجمعين في الدنيا، من آمن به ومن لم يؤمن به: قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ (الأنبياء: 107)،ولتحقيق النجاة من عذاب النار ودخول الجنة يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ . (آل عمران:185).

المؤمنون بالإسلام اليوم في العدد كثير، منتشرون في الكرة الأرضية، أغلبية في دول وأقلية في دول أخرى، ولن ينتهي المسلمون من على سطح الأرض إلا عندما تأتي الريح اللينة في آخر الزمان فتأخذ أرواح المؤمنين، كما أخبر بذلك الرسولﷺ.

لكن الإيمان بالإسلام درجات، مؤمن يمارس الإسلام في ذاته، عامل به في نطاق حياته وحياة من حوله. وهذا النوع من الإيمان نراه في سلوك عامة الناس وعوامهم، وهم الغالبية العظمى. وهذه الغالبية . في الإسلام وفي أي معتقد وحضارة ودين- يمكن أن تكون قوة معطلة لا يؤبه بها ولا تؤثر في الحياة، ويمكن أن تكون قوة ذات فاعلية كبرى تغير الحياة وتؤثر فيها إيجاباً أو سلباً.

إنها تكون قوة معطلة لا يؤبه بها عندما ترتبط بلقمة عيشها، وتتبع شهواتها وأهواءها، وتضعف عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها فحسب، ولا تجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي تربطها بالحياة وتطوراتها.

ولكنها تصير قوة ذات فاعلية إيجابية كبرى عندما ترتبط بلقمة عيشها وتسيطر على شهواتها وأهوائها، وتقوى عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها

ولغيرها على حد سواء، كما كان الصحابة الذين تربوا على عين النبوة ثم انطلقوا لحمل الرحمة للعالمين، وتجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي توجهها إلى الحياة الإنسانية، وتربطها بها وبتطوراتها.

كما أنها تصير قوة ذات فاعلية سلبية كبرى عندما تسيطر عليها الانتماءات اللغوية الإقليمية أو المكانية أو الزمانية أو الجنسية أو العرقية أو النسبية، وترى لها الفضل والأفضلية على بقية البشر، أو يشتط بها إيمانها بنفسها فترى أن الدنيا لها وحدها وغيرها إنما خلق خادماً لها ومحققاً لشهواتها، وهي تلك الدعوات العنصرية والجنسية والدينية.. وتصبح هذه النزعة طامة كبرى في الحياة البشرية عندما تجد قيادة سياسية وقيادة فكرية تزكي في نار التمييز والتميز وادعاء الأحقية على بقية البشر.

تلك درجة من الإيمان تجعل أصحابها غثاء كغثاء السيل.. ويمكن أن تتحول إلى قوة بناء، كالماء العذب يمر على الأرض الهامدة، فإذا بها قد اهتزت وربت وأينعت وأنبتت وأثمرت كما ضرب الله بذلك مثلاً: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (الحج:5).

ودرجة أخرى من الإيمان بالإسلام، يعيش صاحبها في الحياة وهو يحمل هم الحياة وهمومها، ويفكر في طريق خلاصها، عاطفته جياشة لا تفتر، متزنة لا

تحيد، وهو لا يعيش لنفسه فحسب وإنما يعيش لنفسه ولقومه وأمته، بل وللناس أجمعين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، متأسياً بالرسول ﷺ وصحابته خير القرون؛ تراه يتعبد في محراب العمل، ومحراب المعاملة، ومحراب التعامل مع جميع الخلق، كما يتعبد في محراب الصلاة والصوم والحج لله رب العالمين.

هذه الدرجة من الإيمان إذا وجدت في القيادة السياسية والقيادة الفكرية الموجهة لعقول أبناء الأمة وطاقاتها كانت بركة على المسلمين وعلى البشرية أجمعين، وجعلت من المسلمين أنداداً لغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى، يعملون كما يعملون، وينتجون كما ينتجون، ويتفاعلون مع الحياة كما يتفاعلون.

وأما **العمل على تحقيق الإسلام في الحياة** فهو ناتج من الإيمان بعالمية الإسلام وتنظيمه لشؤون الحياة كلها وشؤون البشرية جمعاء، من آمن به ومن لم يؤمن به، وإعطاء كل ذي حق حقه في توازن بين حق الفرد وحق الجماعة وحق الآخرين.

وهذا الوعي بين المسلمين، هو الذي نقل الإسلام من الحجاز إلى الجزيرة العربية كلها، التي تشكل فيها الأنموذج ثم نقل إلى ما حولها من أرض، شمالاً وشرقاً وغرباً وجنوباً، حتى وصل إلى معظم أنحاء العالم المعروف، ويصل أبناؤه اليوم إلى العالم الجديد الذي لم يكن معلوماً لهم.

وأما **البيئة الملائمة للتطبيق** فتقوم على وجود الضوابط والحدود، التي تحفظ لكل مؤسسة، صغرت أو كبرت، قواعد حركتها، وحدودها، وحقوقها،

وواجباتها، ومرجعيتها عند الاختصام، وأسلوب عملها، فرداً أو أسرة أو سلطة تشريعية أو فكرية أو قوة إعلامية.

ولقد وجه الله تعالى هذه الأمة في أسلوب عملها فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى:38)، وإلى مرجعيتها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء: 59)، وإلى أسلوب التقويم في حياتها فقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ (آل عمران:104)، وإلى تعلق القلوب بابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ (البينة:5)، وإلى الالتزام بأحكام الإسلام فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ﴾ (المائدة:48)، وقال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ (المائدة:49).

ها هي أسباب عدم فاعلية الأمة في وقتها الراهن للقيام بدورها الرسالي، قد بانت وظهرت:

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وغياب البعد الرسالي عن واقع الكثير في الأمة المسلمة بشكل عام.
- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى الغالبية العظمى من عامة المسلمين بالدور الحضاري للأمة الإسلامية.
- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى بعض المفكرين المسلمين وعدم التصور العملي للبعد الرسالي.
- الانشغال بتنمية الكيانات الصغيرة للدول العربية والإسلامية، والانكفاء عليه، دون الاهتمام بالارتباط القومي والإسلامي.
- فقدان البعد الرسالي في بناء التعاون والتنسيق بين كيانات الدول العربية والإسلامية في جوانبها السياسية والاقتصادية والإعلامية والحضارية على وجه الخصوص.
- انتفاء سياسة العطاء الحضارية التي تقوم عليها الأمة الإسلامية وتدعو إليها خلال القرون الماضية والقرن الحالي (الإيمان بعالمية الإسلام).
- عدم اعتبار مصادر الإسلام الصحيحة المرجع الأساس لأخذ القوانين والنظم التي تسوس الفرد والجماعة، وللاحتكام بين المسلمين فيما يتنازعون فيه.
- عدم وضع الاعتبار لقوة الشعوب في حركة الدول العربية والإسلامية بحيث تكون قوة مساندة لحكوماتهم وأنظمتهم في عطائهم الحضاري الإسلامي، وفي دفاعهم عن حقوقهم ومقوماتهم أمام طغيان القوى المسيطرة عالمياً.

- اختلاط الاختصاصات بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، أو وحدة الهيمنة عليها، وسرعة إحداث التغيرات في قواعدها وقوانينها في كثير من الدول الإسلامية لتحقيق المصالح الفردية والآنية.

- التجاوزات للقوانين، وسد الأبواب على المتضررين عن المضي في الطرق التي توصلهم إلى حقوقهم عند حدوث هذه التجاوزات.

- ضعف الرقابة، وضمور حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطوير آلياتها، على الأداء الوظيفي للقطاع العام باعتباره القطاع الذي يسوس أفراد الشعب ومؤسسات الدولة، ويحوي ميزانية الدولة، التي يستفيد منها المجتمع بكامله، مع ما لقوته وعطائه من الأثر الأكبر في استقراره والثقة فيه، داخلياً وخارجياً.

- ارتباط حركة الدول بالأفراد الذين يتولون المسؤولية دون مؤسساتها، مما يجعل الدولة لا تستقر في حركتها، وتتغير سياستها وحركتها بتغير الأفراد الذين يتولون أمرها، ويؤثر ذلك في غالب الأحوال سلباً على مقوماتها وحركتها.. كما أنه في هذه الأحوال، غالباً ما يتمكن الطفيليون والمنافقون وأصحاب الأهواء والمصالح الخاصة من مصالح الدولة العامة، ويكثر الفساد الإداري، وتنتشر الرشوة والمحسوبية.

- انغلاق أصحاب الفكر المذهبي أو العلمي أو العلماني على أنفسهم، ومحاولتهم القضاء على الآخرين أو طمس أفكارهم أو ردهم إلى أضيق السبل في الحياة، مما يولد المعارضة التي تعطل الحركة، وتعمل على هدم المجتمع بالتعاون مع (الآخرين).

- عدم التأكيد على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والعمل في مجال المتغيرات، وانصباب الحركات الأخرى على تغيير الثوابت الإسلامية، مما ولد صراعات لم تنته بعد.

أزمة الحضارات الحالية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية:

لا بد من الاعتراف مسبقاً بما للحضارة العالمية الحالية من منجزات حضارية مادية، سواء في التقدم المدني، أو العلمي، أو التقني، أو وسائل الاتصالات، أو العمل التجاري، أو التنظيم الإداري، أو الاهتمام بالجسد البشري وبالنفس الإنسانية من خلال البحوث المكثفة والدراسات الميدانية والدراسات الموسعة.

ولا بد من الاعتراف ثانياً، أن هذه المنجزات الحضارية قد قامت في كثير من دوافعها وتطبيقاتها على أساس الانفصال بين الدين والحياة، وحصر الدين على أماكن العبادة والشؤون الخاصة للفرد، وجعل الحياة الاجتماعية واقعة تحت تخطيط الإنسان والنتائج التي يتوصل إليها انطلاقاً من تشريع الإنسان لنفسه.

ولا بد من الاعتراف ثالثاً، أن القائمين على هذه المنجزات قد تأثروا ببيئاتهم الثقافية، بما فيها من علوم وتاريخ وأساطير وأديان وخرافات ونظرة إلى النفس وإلى الآخرين.

ولا بد من الاعتراف رابعاً، أن الإنسان في طفولته الحياتية والثقافية والعلمية يرى أنه دائماً على الحق، وأن غيره مجاف للحق، ويود لو أن العالم تغير

إلى ما هو عليه .. ويصل به الاعتقاد إلى أنه يعجب كيف ولا يعرف الآخرون الحق الجلي الذي يعتقده، وكيف لا يعرفون الباطل ـ في رأيه ـ الذي هم عليه؟! ولا يخرج من هذه الطفولة إلا من نمى بثقافته وعلمه حتى وصل إلى مرحلة الرجولة والشيخوخة التي تعرف بأن الحق قد يكون متعدداً، وأحياناً أنه لابد من التعايش مع ما هو باطل بكل المقاييس.

ولا بد من الاعتراف خامساً، أن الحضارة العالمية، رغم سماتها الأوروبية والأمريكية وسماتها المادية، إلا أنها لا تمنع الآخرين من الدخول إليها والعمل من داخلها للاستفادة منها والتأثير فيها بقوة البرهان والدليل، مع الاعتراف بأن هذا التأثير ليس بالأمر اليسير ولكنه ليس بالأمر المستحيل.. وتعمل على إشاعة القيم الديمقراطية والحرية والإخاء الإنساني وحقوق الإنسان ودولة المؤسسات والإعلام ـ المفتوح على كل شيء، بما له من سلطة فائقة حتى سمي بالسلطة الرابعة ـ لكل قادر أن يلج إلى تلك المجتمعات ويؤثر فيها، رغم ما سيحاوله الآخرون من عرقلة لتلك الجهود.

وإذا كان الإسلام يهتم بالجسد والروح، وبالمادة والقيمة، ويربط الإنسان بالكون وخالقه، ويعترف بالإنسانية جمعاء، فإن عمل المسلمين مع الحضارة العالمية الراهنة ينبغي أن يكون مكملاً لها، ومصلحاً لاعوجاجها إن وجد، ودافعاً لمسيرتها حتى ترتقي إلى أن تكون إنسانية عالمية لا إنسانية أوروبية أمريكية غربية.

ولقد أتيح للمسلمين أن يثبتوا صدق معتقدات الإسلام وصحة طروحاته، سواء النفسية أو الروحية أو الاقتصادية، في البلاد الإسلامية، والبلاد الغربية، لكن جهودهم ما تزال جهوداً فردية، إلا أن هذه الجهود الفردية تحتاج إلى أوقات طويلة حتى تؤتي ثمارها على المستوى الحضاري.. ويوم أن يكون للدول الإسلامية سياسة للعطاء الحضاري يتم إقرارها من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي أو رابطة العالم الإسلامي، وتلتزم الدول الإسلامية بالعمل على تحقيقها داخل دولها أولاً، وثانياً من خلال الروابط الثنائية والمنظمات الإقليمية كمجلس التعاون لدول الخليج العربية، أو القومية كجامعة الدول العربية، أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أو المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، فإن الوقت سيقصر، والتأثير سيكثر، والإنسانية ستستفيد من هذا التلاقح والتكامل الحضاري بين الإسلام والغرب والشرق.

ولا بد من أن يتم تحديد الموارد المالية لتطبيق هذه السياسة الحضارية من قبل الدولة داخلياً، ومن قبل المنظمات داخلياً وخارجياً. وقد تبين أن المشروعات الدولية التي تنشئها الدول الإسلامية لا تستمر بسبب العجز في الميزانيات العامة لهذه الدول، وأغلبها من الدول المتخلفة.

لذا أدعو للعمل على إنشاء صناديق استثمارية وقفية لهذه المنظمات، بحيث يتم تمويلها ذاتياً بدل الاعتماد على المخصصات السنوية من الدول المشاركة، رغم الحاجة إليها في أول الأمر لإنشاء هذه الصناديق الاستثمارية، بحيث لا تتعدى فترة العشر سنوات من إنشائها لتعتمد على نفسها.

وأظن أن الاضطلاع بالبعد الرسالي لدول مجلس التعاون، أو العمل الحضاري الإسلامي بشكل عام، لا تنهض به أحزاب أو جمعيات، بل لا بد أن تقوم به مجموعة الدول والشعوب الإسلامية، وإن أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة المسلمة بكل مؤسساتها وأفرادها، ينطلق من:

1- استشعار البعد الرسالي في حركة الأمة.
2- تقوية العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وجماهير الشعوب الإسلامية.
3- قيام دولة المؤسسات في الدول الإسلامية.
4- الالتزام بقيم الشورى في حركة المجتمع، في كل مؤسساته.
5- الالتقاء على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والالتزام بأدب الحوار في المواضيع التي تمس تلك الثوابت.
6- الانفتاح بين أصحاب الأفكار والمذاهب الدينية وغيرها.
7- الاهتمام بالتربية والتعليم والثقافة، المعتمدة على مبادئ الإسلام وقيمه.
8- الحرص على السلوك الأخلاقي والعقيدي الذي يرعى الفرد والجماعة.
9- وضع سياسة للعطاء الحضاري الإسلامي على المستوى الداخلي والدولي.

والله الموفق.